خاتمة فلسفية ...!

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تلك هى الخاتمة التى انتهى إليها الأستاذ عباس محمود العقاد .

ولم تكن هذه الخاتمة غريبة على هذا الكاتب الذى بدأ حياته أديباً ، ناقداً ، شاعراً ، وكل شيء إلا الفلسفة . فقد يبدو للقارىء العادى أن معالجته الفلسفة الحقيقية مما يتنافى مع مظاهر كتاباته وكتبه ، ومطالعاته فى الكتب والفنون ، غير أن الناظر فى أعماق آثاره الفلسفية ، أو القارىء ماوراء السطور ، يلمح ولا ريب فكراً نافذاً عميقاً يتخطى الظواهر القريبة المألوفة ، ويذهب إلى الأصول الأولى والغايات البعيدة . وتلك هى النظرة الفلسفية ، رد الكثير إلى الواحد ، والبحث عن العلة الأولى والغاية النهائية .

ولهذا السبب كان جمهور القراء يجدون مشقة فى فهم آرائه ، لأنه لا يحفل بالتواقه ويمضى إلى الأعماق ، ولأنه كاتب لا ينزل إلى الجماهير بل يأخذ بأيديهم إلى مستواه .

وكتاب « فى بيتى » الذى صدر فى سلسلة « إقرأ » ينبىء عن هذه الخاتمة الفلسفية ، ولو أن صاحب الكتاب تجنب الاعلان فى العنوان .

أما كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذى صدر بعد ذلك بعام ، فقد أسفر وأبان ، وكشف فيه العقاد عن حقيقة نزعاته الفكرية ، واتجاهاته العقلية .

غير أن نزعة الأدب التى التزمها خلال سنوات طويلة من حياته لم يتخل عنها ، فهى منه بمنزلة الطبيعة . وبتعبير فلسفى : أصبحت « مادة » فكره فلسفية ، و « صورة » فكره أدبية . وأعنى بالصورة الأدبية أنه ينحو منحى ذاتياً شخصياً فى التعبير ، فى مقابل النزعة العلمية التى يعبر فيها صاحبها تعبيراً موضوعياً . لا تحس فيه بالتأثيرات الشخصية .

أو هكذا أفهم الأدب ، ولعل فريق الأدباء يفهمون منه شيئاً آخر .

وقد تسأل نفسك : ما المادة وما الصورة ، هذان الاصطلاحان اللذان وضعتهما بين أقواس ؟ .

ليس غريباً على من درس الفلسفة أن يعرفهما ، فهما خلاصة مذهب أرسطو فى الفلسفة ، حين يقول : إن كل جسم طبيعى مركب من هيولى أو مادة ، وصورة . ولا مادة بغير صورة كالتمثال مادته النحاس ، وصورته هيئته التى هو عليها . ولست تجد نحاساً بغير صورة ، مهما تكن .

لقد تعرض العقاد ، حين تحدث عن فلسفة ابن سينا ، لأفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، والكندى والفارابى ، بل وصل إلى فلسفة العصر الأخير الذى نعيش فيه ، فكأنه اتخذ من الشيخ الرئيس محوراً تدور حوله الآراء من الماضى البعيد إلى الحاضر القريب .

وهو منهج سليم ، لأن الفلسفة هى تاريخ الفلسفة .

وقد رأى أن يصنف المشكلات الفلسفية التى سوف يعالجها حتى يمضى فى ترتيب ووضوح ، فلخصها فى مسائل أربع : وجود العالم ، وجود النفس ، وجود الشر ، حرية الإنسان . ثم نظر إلى حلول الفلاسفة القدماء لهذه المشكلات العسيرة الحل ، وأثبت رأى ابن سينا فيها ، وهى على كل حال مشكلات لا تزال قائمة ، تعالجها الفلسفة ، وأكبر الظن أن الآراء سوف تظل متضاربة فى شأنها ، لأنها تفوق نطاق العقل وحدوده ، على الرغم من تقريب العلم الحديث لبعض تفصيلاتها .

وإذا أردت أن تعلم رأى العقاد الشخصى فى هذه المشكلات فاقرأ تعقيبه فى آخر الكتاب ، فهو يذهب إلى أن المادة والعقل شىء واحد . فيضع بذلك حداً حاسماً للمشكلة التى أثارها الأقدمون مشكلة الثنائية فى الموجودات ، أو الفلسفة المادية والفلسفة الإلهية ، كما يقول العقاد فى تقسيمه لمشكلات الفلسفة ، أو بين المادية والروحية كما يذهب إلى ذلك بعض المفكرين .

وفى ذلك يقول ما نصه فى آخر الكتاب « فصورة المادة